جاسوسية عصر النهضة

تميز عصر النهضة باندثار المجتمع الإقطاعى الأوروبى ، وازدهار التجارة الدولية ، واتساع نطاقها ، وامتداد خطوط مواصلاتها ، والتهافت على احتكار الأسواق العالمية البعيدة ، والتسابق لنقل الحضارة العربية بأفكارها ومعارفها إلى أوروبا ، وإحياء التراث الإغريقى ، مما أوجد ثورة فكرية وحركة نقل ثقافى بدأت فى دول حوض البحر الأبيض المتوسط وما حولها ، واتسعت دوامتها حتى شملت العالم كله . وتدريجياً احتدم الصراع حول احتكار الأسواق ، وتطور الأمر فيما بعد إلى حمى الاستعمار . وخلال ذلك كله لعب التجسس دورا نشطاً متطوراً .

★ أوليفر كرومويل

فى إنجلترا حشد «**أوليفر كرومويل**» لأول مرة جيشا دائماً ، وكانت الجيوش من قبل تحشد لمعركة وتنفض بعدها . وكان يعرف أن المعركة بينه وبين الملكيين طويلة ، فحشد بالمثل جيشا من الجواسيس ، وعهد إلى «**جون تورليو**» بالإشراف عليهم ، فانتشروا فى طول الجزيرة وعرضها ، وكان لهم دور هام فى انتصاره على الملك «**شارل الأول**» فى يوركشاير عام ١٦٤٤ ، وفى معركة «**نيزباى**» . ويرجع الفضل للمخابرات فى الكشف عن محاولة الملك الاستنجاد بقوات أجنبية ، مما اعتبر خيانة عظمى ، قدم بمقتضاها للمحاكمة ، فحكم عليه بالإعدام .

قبل زحفه على «**أيرلندا**» لسحق مقاومة الملكيين ، وقبل ذهابه إلى إسكتلندا على رأس حملة مماثلة ، زودته مخابراته بسيل من المعلومات الدقيقة ، على ضوئها هزم الملكيين هزيمة منكرة فى «**دانبر**» ، وبعدها بعام واحد هزم الأمير «**شارلز الثانى**» فى «**وورسيستر**» ، وكانت تلك آخر معركة خاضها «**أوليفر كرومويل**» ، كما كانت أعظمها ، لأنه حقق أعظم النتائج بأقل الخسائر .

لقد لعب حسن تنظيم المخابرات دوراً هاماً فى انتصارات كرومويل ، ودعم مركزه ، وتعزيز حكمه الجمهورى بعد اندحار الملكية ، على عكس ما حدث فى عهد ابنه «**ريتشارد كرومويل**» ، الذى أهمل المخابرات ، وخسر الحكم .

★ دانيال ديفو

دانيال ديفو

كان «**دانيال ديفو**» من أعظم الروائيين فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وكان من أبرع عملاء الملكية . على الرغم من ذيوع صيته بتأليف «**روبنسون كروزو**» ، إلا أنه كان يعمل فى الخدمة السرية للملكة «**آن**» . كان يبدو كما لو كان ظاهرياً من الثوار ، وموزعى المنشورات ، ومثيرى الفتن، مما أدخله السجن مرتين ، وكانت خلفيته لا تتيح له أن يجارى عالم التجسس لصالح الملكية .

أهم ما يميز «**دانيال ديفو**» حدة ذهنه ، وقوة عينيه فى تسجيل التفاصيل ، وقدرته على مواصلة الملاحظة دون تعب أو ملل . وهذه هى السمات التى لفتت إليه انتباه «**روبرت هارلى**» إيرل اكسفورد ، الذى دبر إطلاق سراحه من السجن ، مقابل وعد بالوفاء والولاء لهارلى . وقد وفىّ بالوعد فعلا لكل من «هارلى» واللورد «**جولد سميث**» من بعده ، حتى أن الأخير أوصى به خلفاً له ، حينما أُقصى عن مركزه كرئيس للمخابرات عام ١٧١٠ .

تظاهر «ديفو» بأنه سئم المبادئ السياسية وفقد اقتناعه بها تدريجياً كلما أوغل فى مجاهل الجاسوسية ، ولما ازداد خطر «**آل سيتوارت**» ، أرسله الملك «**جورج الأول**» فى جولة حول البلاد ، منتحلا اسم «**الكزاندر جولد سميث**» أحياناً ، واسم «**كلود جيلوت**» أحياناً أخرى ، وأمكنه خلال الجولة أن يكتشف العناصر المؤيدة لآل سيتورات والتى يحتمل أن تتشكل منها المقاومة ، كما استطاع فى نفس الوقت تكوين شبكة مخابرات تتبعه مباشرة .

ومع نجاحه الواضح كجاسوس ، إلا أنه ظل روائياً غزير الإنتاج ، يتفانى فى خدمة الملك جورج ، ولم يوقفه ذلك عن تأليف كتابه «جولة خلال إنجلترا وويلز» فقد كان مغرما بالتأليف ، فضلا عن أن الكتابة كانت تدر عليه ربحاً إضافياً .

★ بنيامين فرانكلين

كان بنيامين فرانكلين رجلا بادئ الهدوء والوقار فكراً وسلوكاً . وكان دبلوماسيا بارعا ، وعميلا ذا وجهين . من خلال عضويته فى نادى «**هيلفاير**» المشهور ، تعرف على عدد من الوجهاء وكبار الشخصيات ، من بينهم «**لورد بوت**» رئيس الوزراء ، وسير «**فرانسيس داشوود**» مستشار الخزانة ، الذى راسله سرا فيما بعد .

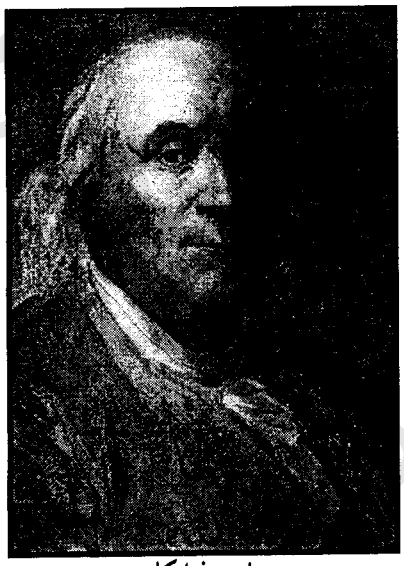
بنيامين فرانكلين

حينما كان «فرانكلين» سفيرا لأمريكا فى باريس ، سمح لصديقه ومساعده الأول «**إدوارد بانكروفت**» بتنظيم وحدة خدمة سرية بريطانية فى السفارة . وهكذا وجدت طريقها إلى لندن كل المعلومات الآتية من «**واشنطن**» مع كمية ضخمة من المعلومات التى يجمعها العملاء الفرنسيين . وكان فرانكلين يمرر إلى «لندن» المعلومات المتعلقة بمواعيد إبحار السفن، وأنواع وأوزان الشحنات المرسلة إلى جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

الهدف الذى كان يسعى «فرانكلين» إلى تحقيقه هو وضع قدميه فى كل من المعسكرين . كان يعرف أن «الملك چورچ» سوف يكافئ بسخاء أى شخص يستطيع إعادة المستعمرات تحت ظل بريطانيا ، وكان عليه فى الوقت نفسه أن يستعد لحقائق الاستقلال ، وأثبتت الأحداث أنه كان على حق ، ذلك أن «**چون كويسى آدمز**» ، الرئيس الثانى للولايات المتحدة الأمريكية ، أعرب خلال مفاوضات السلام عن شكه فى ولاء «فرانكلين» ، لكنه عجز عن تقديم أدلة تكفى لإدانته . ومما تجدر الإشارة إليه ، أن «بنيامين فرانكلين» الذى توفى عام ١٧٩٠ ، كان عالماً ومخترعاً بالإضافة إلى كونه دبلوماسيا وجاسوسا .

★ إعدام جون أندرى

يشار إلى «**جون أندرى**» بأنه الجاسوس الوحيد الذى كرمته بريطانيا بلوحة تذكارية فى دير «**ويستمنستر**» . وهو ابن تاجر سويسرى فى لندن . ارتقى فى

السلك العسكرى حتى رتبة رائد ، وشغل منصب مساعد قائد القوات البريطانية فى نيويورك . وحينما استسلم الجنرال الأمريكى «**بينيديكت أرنولد**» للقوات البريطانية عام ١٧٨٠ ، أوفد «**أندرى**» للتفاوض معه .

تزود «أندرى» بجواز مرور يحمل اسماً مزوراً هو «**جون أندرسون**» ، لكن مما يؤسف له أن تنكره لم يكن محكماً . ولما أوقفته دورية أمريكية شكت فى أمره ، ارتكب أندر خطأ قاتلا ، إذ اعترف بأنه ضابط بريطانى وحاول أن يتخلص من المأزق بتقديم رشوة إلى الدورية .

تم القبض عليه ، وحاكمته محكمة عسكرية ، أدانته بتهمة التجسس ، وحكمت عليه بالإعدام شنقاً . تدخل عدد كبير من الشخصيات الأمريكية يطلبون تخفيف الحكم عنه ، إلا أن جهودهم ذهب أدراج الرياح . ونفذ فيه حكم الإعدام فى «**تابان**» ، فجر اليوم الثانى من أكتوبر عام ١٧٨٠م . ويعتبر «**جون أندرى**» نموذجا لجندى الجاسوسية الذى اقتحم معركة لم يعد لها .

★ جيمس روبرتسون

لم يكن جندياً تقليدياً . وكان له اسمان : «**آرثر ويلزلى**» و «**دوق ويلينجتون**» . استفاد من خدمته كعميل بينما غيره من القادة الأكثر تحفظا لم يستفيدوا مثله من المعلومات التى حصلوا عليها . ينتمى «جيمس روبرتسون» إلى دير «**البنديكت**» فى ريجينزبيرج ، وفيه سمى «بالأخ جيمس» . وكان يتحدث اللغة الألمانية بطلاقة.

أول مهمة قام بها «جيمس» كانت تحسين مصير ١٥٠٠٠ جندى أسبانى انقطعت بهم الأسباب فى «الدانمارك» . وذلك بتكليف من وزارة الخارجية ، أقنع نابليون حلفاءه السابقين ـ قبل شن هجومه المفاجئ على أسبانيا ـ بأن «الدانمارك» مهددة بهجوم بريطانى ، وطلب من أسبانيا إرسال ١٥٠٠٠ من أفضل الجنود تدريبا وتسليحا لحمايتها .

ذهب «**جيمس**» إلى مقر الخدمة السرية البريطانية فى «**هيليجولاند**» ، ومن هناك هربوه فى زورق صغير إلى مصب نهر «ويزر» فى ألمانيا ، منتحلا اسم «**آدم وهرور**» . علم أن القوات الأسبانية قد وزعت على سلسلة من الجزر الصغيرة المعزولة فى حالة يرثى لها ، مما جعلها تفقد لياقتها القتالية.

عبر البحر إلى جزيرة «**فونين**» حيث قابل «**الماركيز دى رومانا**» القائد الأسبانى، اتفق معه على تأمين رحلة بحرية آمنة له ولقواته إلى أرض الوطن ، على سفن الأسطول البحرى الملكى البريطانى .

بعد رحلة زاخرة بالأحداث الخطيرة نجح «روبرتسون» فى العودة إلى «هيليجولاند» . وهناك أمكنه الاتصال بقائد البحرية البريطانية الأدميرال «كبتس» ، الذى استطاع نقل ٩٠٠٠ جندى أسبانى من الجنود المعزولين فى جزر ساحل الدانمارك . حملتهم سفينة حربية بعد عدة أيام وأعادتهم إلى أسبانيا ، ليلعبوا دورا هاما فى معركة «ويلينجتون» .

★ الفارس د ـ يون .. رجل أم امرأة؟

فى ٢١ مايو ١٨١٠ ، توفيت فى لندن امرأة فرنسية تعرف باسم «الآنسة د ـ يون» . وهنا فقط فحص الأطباء جثمانها ، فوضعوا نهاية للجدل الذى أحاط بحياتها ، وبعد أربعة أيام من وفاتها ، نشرت جريدة «**التايمز**» خبرا مذهلا عنوانه : «**الآنسة د ـ يون كانت رجلا**» .

قصة «**د ـ يون**» من أغرب قصص الجاسوسية فى التاريخ . بدأ حياته العملية جاسوسا فى خدمة «**لويس الخامس عشر**» ملك فرنسا عام ١٧٥٦ . أرسله لويس إلى «**روسيا**» لتحضير معاهدة سرية مع إمبراطورة روسيا . ولما كان وزراؤها متشككين فى الفرنسيين ، ذهب د ـ يون متنكراً فى شخصية سيدة فرنسية ، وأصبحت الجميلة «ليادى بومونت» ذات حظوة ناجحة فى البلاط الروسى . وقيل إنها صارت هدفا لكبار الرسامين يتهافتون على رسمها . وفى الوقت نفسه نجحت «الجميلة ليا» فى عقد المعاهدة مع الإمبراطورة ، وهربتها معها إلى فرنسا .

د ـ يون فى زى الفارس

فى عام ١٧٦٢ وجد «**الملك لويس**» مهمة أخرى لجاسوسه الموهوب «د ـ يون» أرسله إلى إنجلترا لمساعدة السفير الفرنسى هناك . ذهب «د ـ يون» هذه المرة كرجل بشخصيته الحقيقية مع

الاحتفاظ بوظيفته كجاسوس مهمته الرئيسية هى التحقق من مدى استعداد إنجلترا للحرب ، حيث كان الملك لويس الخامس عشر يضع خطة لغزو إنجلترا . كان «**د ـ يون**» يؤدى خدماته بمهارة عالية ، أهلته بسرعة للحصول على وسام «**فارس**» ، وجعلته يطمع فى وظيفة السفير ، كان شخصية محبوبة فى المجتمع الإنجليزى الراقى . كان مضيافا يكثر من إقامة الحفلات وينفق عليها ببذخ ، مما أغرقه فى الديون .

لكن الملك لويس بدأ يخشى جاسوسه الذى يعرف وثائق سرية كثيرة قد يستغلها ضده .. لم يفز «د ـ يون» بوظيفة السفير ، وإنما صدرت له الأوامر بالعودة إلى فرنسا . فامتعض ، ونشب عداء بينه وبين «**جويرتشى**» السفير الجديد ، الذى دبر عدة محاولات للاعتداء على حياة «د ـ يون» . بما فيها القتل والاختطاف ، لكنها فشلت جميعا . لجأ «د ـ يون» إلى تحصين بيته فى شارع بربوار بحى سوهو، وشدد عليه الحراسة برجال مسلحين . وأخفى وثائقه السرية فى خزانة بجدار غرفة نومه ووصلها بمتفجرات .

ذاعت أخبار العداء المستحكم بين «د ـ يون» والسفير الفرنسى ، وانحازت جماهير لندن إلى صف «د ـ يون» ، يسخرون من «جويرتشى» فى الطرقات ، ويحطمون نوافذ بيته بالحجارة . وأخيرا استدعى للعودة إلى فرنسا مهيض الجناح ، وبقى «د ـ يون» فى إنجلترا ، لكن أحداث العداء أفقدته بعض اتزانه ، فبدأ يرتدى ملابس النساء فى الأماكن العامة ، وبدأت الشائعات تنتشر حوله ، بما فيها المراهنات على حقيقة جنسه .

فى عام ١٧٧٤ مات الملك لويس ، وألغت الحكومة جهاز الخدمة السرية ، لكن «د ـ يون» رفض تسليم وثائقه السرية ما لم يصرفوا له مبلغا من المال . وهكذا كان الجاسوس يبتز ملك فرنسا الجديد . وفى عام ١٧٧٥ أرادت حكومة فرنسا أن تضع نهاية لمهزلة الوثائق السرية ، وقررت تفويض الكاتب المسرحى المغامر «**كارون بومارشيه**» ، مؤلف «**حلاق إشبيليه**» ، و «**زواج فيجارو**» ، وكان أيضا جاسوساً فرنسياً .

سافر «بومارشيه» إلى إنجلترا . وبعد مفاوضات عسيرة طويلة ، وافق «د ـ يون» على تسليم الوثائق ، مقابل أن تسدد حكومة فرنسا ديونه ، والسماح له

بالعودة إلى فرنسا ، وبشرط أن يكف «د ـ يون» عن إثارة الفضائح ، وأن يرتدى ملابس النساء مدى الحياة .

★ أول مخابرات أمريكية عصبة كولبر

فى عام ١٧٧٥ اشتعل فتيل الحرب بين بريطانيا ومستعمراتها الأمريكية . أسرعت بريطانيا باحتلال نيويورك وجزيرة «**لونج أيلاند**» المجاورة لها ، وسرعان ما أسروا بعدها جاسوسا أمريكيا اسمه «**ناثان هيل**» ، خلدته كلماته الأخيرة التى صاح بها على المقصلة ، وجعلته أشهر جاسوس فى تاريخ أمريكا ، إذ قال : «آسف فقط ، لأنى لا أملك سوى حياة واحدة أقدمها لوطنى» .

لقد كانت وفاة «هيل» حافزا قوياً دفع جورج واشنطن إلى التصميم على تكوين جهاز مخابرات كفء ، وأسند تشكيله وإدارته إلى رجلين كانا صديقين «لهيل» ، هما : الميجور «**بنيامين تولمادج**» و «**روبرت تاونسيند**» ، وأطلق عليها اسم «عصبة كولبر» ، لأن «**تاونسيند**» كان يستخدم اسم «**صمويل كولبر**» .

كتب «**جورج واشنطن**» رسالة بالشفرة عام ١٧٧٨م تعطى فكرة عن نوع المعلومات التى كان يهتم بجمعها ، جاء فيها : «اختلط أكثر ما يمكنك بالضباط واللاجئين ، وزر المقاهى والحانات وغيرها من الأماكن العامة ، اعرف ما إذا كانت فضلات أعمال ملقاة على شاطئ «**نهر هارلم**» أو بالقرب من حى «**هارلم**» ، وما إذا كانت «**هورنز هوك**» قد حصنت . وإذا كان الأمر كذلك ، كم رجلا فى كل مكان؟ وما عدد وحجم المدافع فى تلك المواقع؟ .

لا يتوقف نشاط «**عصبة كولبر**» على تمرير المعلومات . لقد اكتشفوا بالصدفة عام ١٧٨٠م جاسوسا بريطانيا اسمه «**جون أندرى**» . احتلت القوات البريطانية خليج «**أويستر**» على «**لونج آيلاند**» ، واتخذ عدد من الضباط البريطانيين من بيت «تاونسيند» مسكنا . اكتشفت أخت «تاونسيند» واسمها «**سارة**» أن أحد الضباط يتسلم رسائل تحت اسم مزيف هو : «**جون أندرسون**» ، بينما اسمه الحقيقى «ميجور جون أندرى» . ارتابت «سارة» فى أمره ، وازداد شكها حينما سمعت الميجور أندرى يلح فى السؤال عن تفاصيل التحصينات والقوات الأمريكية فى «ويست بوينت» ، فأخبرت «تالمادج» أن «أندرى» قد يكون جاسوسا .

مهما يكن الأمر ، فقد استلم «تالمادج» خطابا من الجنرال الأمريكى «بينديكت

أرنولد» فى «ويست بوينت» ، يطلب منه ترتيب حرس إلى «ويست بونيت» ومنها لمرافقة أحد أصدقائه ، واسمه السيد «جون أندرسون» !! هل كان أرنولد يريد الاتصال بعميل بريطانى؟ هل كان جنرالا أمريكيا ، أم خائنا؟ .

أسرع «تالمادج» بإطلاق رجاله فى أعقاب أندرى ، لكنه كان متأخرا جدا ، لأن «أندرى» كان قد وصل فعلا إلى «ويست بوينت» ، واتصل بالجنرال «بينديكت أرنولد» ، وسلك طريق العودة خلال الخطوط ، يحمل رسالة من «أرنولد» وبخطه إلى البريطانيين . اشتبه فى أمر «أندرى» ثلاثة من الجنود الأمريكيين المتطوعين ، فاعتقلوه ، وحوكم ، وأعدم كجاسوس .

بتفتيش «الميجور أندرى» بعد اعتقاله ، اتضح أنه يحمل جواز مرور زوده به «بينديكت أرنولد» ، يحمل اسما مزيفا هو «جون أندرسون» . وعثر فى حذائه على رسالة من «بينديكت أرنولد» إلى البريطانيين . يعرض فيها الخيانة بتقديم المعلومات عن تحصينات «ويست بوينت» ، مقابل ٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى .

كتب أرنولد فى رسالته : «إذا حددت خطة تعاون لاستيلائكم على ويست بوينت . المعسكر ، والمخازن ، والأسلحة ، وغير ذلك ، فإن ٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى ـ فى اعتقادى ـ صفقة رخيصة مقابل شئ فى مثل هذه الأهمية العظيمة . وفى الوقت نفسه أطلب دفع ألف جنيه إلى عميلى . أتوقع ردا كاملاً واضحاً . سأذهب إلى «ويست بوينت» فى العشرين من هذا الشهر . أرى أن مقابلة شخصية مع ضابط تثقون فيه ، ضرورية جدا ، لتخطيط الأمور» .

****